

٣- الجمال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال الراوي :

نظرتُ إليها ونظرتُ . أما هي ، قرّنتُ إلىّ في سكون ،
وكانت نظرتها معاتبيةً طويّلةً فيها التملُّقُ والتوجُّعُ ، وفيها
الانكسارُ والقُتورُ ، وفيها الاسترخاءُ والدلالُ
وبينما كان طُرفُها ساجياً قاتراً كأنه ينظرُ أحلامه ،
إذ حدّته إلىّ بقاءً ونظرتُ نظرةً مدهوشةً ، فبدتُ عيناها
فزعيتين ولكن في وجهٍ مطمئنٍ
ثم لم تكذبُ تفعل حتى ضيّقتُ أجفانها وحدّقتُ النظرَ
متلألئاً بعمانيه ، فبدتُ عيناها ضاحكتين ولكن في وجهٍ مبتلمٍ
ثم ابتسمتُ بوجهها وعينها معاً ، وأتمتُ بذلك أجملَ
أساليبِ المرأةِ الجميلةِ المحبوبةِ في اعتراضها عليّ من تحبه ، وجدالها
مع فكره ، وكسُورِ حُججته في كبريائه ، وانزعاجِ الفكرةِ
المستقلّةِ من نفسه

وأما أنا ؛ فكانَ نظري إليها ساكنًا متألماً يُقِرُّ أنه يحزن عن
جوابِ عينيها ، وسيقى تاجزاً عن جوابِ عينيها
إن وجهها هو الابتسامُ وروحُ الابتسامِ ، ووجهها هو
الاغتراءُ وروحُ الاغتراءِ ، وفيها هو الفتنةُ وروحُ الفتنةِ ،
وهي بهذا كلُّه ، هي الحبُّ وروحُ الحبِ . غير أن فهمها على
حقيقتها في الناس يجمُلُ ابتسامها عداوةً من وجهها ، واغتراءها
جرعةً لجسمها ، وفيها رذيلةٌ في جمالها ، وهي بهذا كله ، هي
الشقاءُ وروحُ الشقاءِ

أما إنّي أحبُّ فنعمٌ ونعمًا ، بل أراه حبًّا قاتلاً كعبيدٍ ،
وليس يخلو فؤادي أبداً من سوائفِ حُبِّ مضي ؛ وأما إنّي
أسترذِلُ في الحبِّ وأمتنُّ فضيلتي وأترلُ بها - فلا وأبداً
إن ذلك الحبُّ هو عندي عملٌ فنيٌّ من أعمالِ النفسِ ،
ولكن الفضيلةُ هي النفسُ ذاتها ؛ والحبُّ أيامٌ جميلةٌ عابرةٌ في
زمني ، أما الفضيلةُ فهي زمني كله ؛ وذلك الجمالُ هو قوةٌ من

جاذبية الأرض في مدتها القصيرة ، ولكن الفضيلةُ جاذبيةُ
السماء في خلودها الأبدى

على أنه لا مُتأففةً بين الحبِّ والفضيلةِ في رأيي ، فإن أقوى
الحبِّ وأملأه بفلسفةِ الفرحِ والحزنِ لا يكون إلا في النفسِ الفاضلةِ
المتورعةِ عن مُقارَفةِ الانتم . وههنا يتحولُ الحبُّ إلى ملكٍ
ساميةٍ في إدراكِ معاني الجمالِ ، فيكون الوجهُ العشوقُ مصدرَ
وحي للنفسِ العاشقةِ . وبهذا الوحي والاستمدادِ منه ينزلُ
الحبُّ من المحبوبِ منزلةً من يرتفعُ بالأدميةِ إلى الملائكيةِ (١)
ليتلقي النورَ منها فنًا بعد فن ، والفرحُ معنى بعد معنى ، والحزنُ
السمائيُّ فضيلةً بعد فضيلةً

فهذا الحبُّ هو طريقةٌ تنسبُ لاتساعِ بعضِ العقولِ الهيأةِ
للالهامِ كي تُحيطُ بأفراحِ الحياةِ وأحزانها ، تُبدعُ للدنيا صورةً
من صورِ التعبيرِ الجميلةِ التي تُثيرُ أشواقِ النفسِ . كأن كلَّ عيبٍ
وحبيته من هؤلاء اللهمين ، هما صورةٌ جديدةٌ من آدمٍ وحواءِ ،
في حالةٍ جديدةٍ من معنى تركِ الجنةِ ، لايجادِ الصورةِ الجديدةِ من
الفرحِ الأرضيِّ والحزنِ السماويِّ

والخطُّرُ في الحبِّ ألا يكونَ فيه خطرٌ . . . فهو حينئذٍ
نداءُ الجنسِ ، لا يكونُ إلا دينيًّا ساطعًا مبذولاً فلا قيمةَ له ولا
وحي فيه ، إذ يكونُ احتياليًّا من عملِ الفريزةِ جاءت فيه لايسةٌ
توبُّها التورانيُّ من شوقِ الروحِ لتخدعَ النفسَ الأخرى فيتصلَ
بينهما ، حتى إذا اتصلَ بينهما خلعتِ الفريزةُ هذا الثوبَ
واستطلتْ أنها الفريزةُ فأنحصرَ الحبُّ في حيوانيته وبطلتِ
أشواقه الخياليةُ أجمع

قال الراوي : وعرفتُ الحسناءُ هذا كله من عرضها نظرةً
وتلقبها نظرةً غيرها ، فقالت للأستاذ (ح) : أما أن يكون مع
أثرِ الشعرِ والفكرِ في الجمالِ ودعوى الحبِّ أثرُ الزهدِ في الجسمِ
الجميلِ وادِّعاهُ الفضيلةِ - فإنَّ بيدياً أن يجتمعا
قال (ح) : وأنَّ يُعديبه ويحك عن هذه المنزلةِ ؟ إنّي
لأعرفُ من هو أعجبُ من هذا

قالت : وماذا بقي من العجبِ فتعرفه ؟

(١) نحن لا ننسبُ للملائكةِ إلا ما لا خلافُ القاعدةِ المقررةِ في علمِ
الصرفِ ونرى أن مخالفتها هي القاعدةُ في هذه القطةِ

قال : أعرف رجلاً متزوجاً أحبُّ أشدَّ الحبِّ وأمضه حتى استهام وتذكَّه ، فكان مع هذا لا يكتب رسالةً إلى جيبته حتى يستأذن فيها زوجته كيلا يمتدى على شيء من حقها . وزوجته كانت أعرف بقلبه وبحب هذا القلب ، وهي كانت أعلم أن حبه وسؤلوانه إنما طريقتان في الأخذ والترك بين قلبه وبين الماني ، نارة من سبيل المرأة وجمالها ، ونارة من سبيل الطبيعة ومحاسنها

فتنهت وقالت : يا عجباً ! وفي الدنيا مثل هذا الزوج الطاهر ، وفي الدنيا مثل هذه الزوجة الكريمة ؟

ثم إنهما وجمت هنيهةً مجتمع في نفسها اجتماع السجانية ، ثم استدمت ، ثم أرسلت عينها تبكي . فبدرت أنا أرقه عنها حتى كففت من دمعا ، وكان (ح) قد وخرها في قلبها وخرزة أليمة بذكره لها الزوجة ، ثم الزوجة الطاهرة ، ثم الطاهرة حتى في وسوسة شيطان النيرة . ارتفع ثلاث مرات بالزوجة ، ترى هذه المكيئة أنها سافلة ثلاث مرات ، وكأنه بهذا لم يكلمها بل رسم لها صورتها في عيشها المخزي وقال لها : انظري

وإما كان أجملها يرقرقُ اللمعُ في مينيها الفانتين الكحيلتين فيئثُ منهما حزناً يخيل لمن رآه ، أنه من أجملها سيحزنُ الوجود كله

ليس البكاء من هاتين المينين بكاء عند من يراه إذا كان من الماشقين ، بل هو فنُّ الحزن يوضع مجالاً جديداً في فنِّ الحسن . وأكاد أعجبُ كيف وجد اللمعُ مكاناً بين الماني الضاحكة في وجهها - لو لم يكن هذا اللمعُ قد جاء ليظهر على وجهها الفنُّ الآخر من جمال الماني الباكية

وسألها : ما الذي خاصر قلبك من كلام الأستاذ (ح) فأباكك ، وأنت كما أرى يتألقُ النورُ على جدران المكان الذي تحلن به ، فيظهر المكان وكأنه يضحك لك ؟

فتسككت لحظةً ثم قالت : أياك ما تقول أم أنت

تسكمت بي ؟

قالت : كيف يخطر لك هذا وأنا أحترم فيك ثلاث حقائق :

الجمال ، والحب ، والألم الانساني ؟

قالت : لا تتريب عليك (١) ، ولكن صور لي يلاغتك كيف أحبتك وأنت غير متعجب الي ، وكيف جادتُ نفسي فيك وداورُها عنك ، وكلما عزمت الحمل عزمي ؟ فهذا مالا أكاد أعرف كيف وقع ، ولكنه وقع . هذه قطرة من الماء الصافي المذب فضع عليها (الكرسكوب) يا سيدي وقل لي ماذا ترى ؟

قلت : إنك تُخرجين من السؤال سؤالاً . فما الذي خامر قلبك من كلام (ح) فبكيت له ؟

قالت : إذن فليست هي قطرة من الماء بل تلك دمة من دموعي ، فضع عليها الكرسكوب يا سيدي

قال الراوي : وكانت حزينة كأنها لم تسكت عن البكاء إلا بوجهها وبقيت روحها تبكي في داخلها . فأراد الأستاذ (ح) أن يستدرك لنظته الأولى فقال : إنك الآن تسألينه حقاً من حقوقك عليه ، فكل امرأة يحبها هي عروس قلمه ولها على هذا القلم حقُّ التفقة

فضحكت نوعاً ظريفاً من الضحك الفاتر كأنما ابتكره ثمرها الجليل لساعة حزنها ، ونظرت الي . فقلت : إن كان الأمر

من نفقة العروس على القلم فما أشبه هذا (بلا شيء) جحا فضحكت أظرف من قبل ، وخييل الي أن نثرها انطبق بمد اقتاراه على قبلة أفلتت منه فأسكمتها من آخرها ...

ثم قالت : ما هو (لا شيء) جحا ؟

قلت : زعموا أن جحا ذهب يخطب ، وحمل فوق ما يطيق ، فبهتته الرجل وبلغ به الشقة ، ثم رأى في طريقه رجلاً أبله فاستمان به ، فقال الرجل : كم تعطيني إذا أنا حملتُ عنك ؟ قال : أعطيك (لا شيء) . قال : رضيت

ثم حمل الأبله وانطلق معه حتى بلغا الدار ، فقال : أعطني أجرى : قال جحا : لقد أخذته . واختلفا ، هذا يقول أعطني ، وهذا يقول أخذت ؛ فكتبه الرجل (٢) ومضى يرفعه إلى القاضي ، وكانت بالقاضي لونة وعلى وجهه رواة الحق (٣)

(١) أي لا عيب عليك (٢) أخذ بتلايه

(٣) اللونة بضم اللام من الجنون ، وتكون أيضاً بمعنى المنز ورواة الحق علاماته وهي مرروفة فاعلم القارئة

بصيرة كرجال المال في حق الثروة عليهم ، ومرة قاسية عنيدة كرجال الحرب في واجبها عندهم ، ومرة خبيثة منكرة كرجال السياسة في عملها بهم ؛ ولكني أرى المسئلة تلتين لي وتشكل مني وتحتل هذه الوجوه كلها لتبقى حيث هي في قلبي فإنه هو هو المسئلة . . .

وأغتم لذلك غمًا شديدًا وأراني سأسقط بمد سقوطي الأول وأقبح منه ، إذ الحياة عندنا قاعة بالخداع وهذا يفسده الاخلاص ؛ وبالمكر وهذا يبطله الرفاء ، وبالنسيان وهذا يبطله الحب . وإذ عواطفنا كلها متجردة لنرض واحد هو كسب المال وجمعه وادخاره ، وفضيلتنا عملية لا لتخييل ، حسيية لا لتفنتل ، فيستوى عندنا الرجل بلغ جماله القمر في سنامه ، والرجل بلغت دماسته الذباب في أقداره ؛ والحب معنا هو كم في كم ويبقى ماذا . . . أو كما يقول أهل السياسة هو « النقطة العملية في المسئلة » . ولكن المسئلة التي في قلبي لا ترى هذا حلالها ، لأنه هو هو المسئلة . . .

فيزيدني الكرب ، ويشدد على البلاء وأحبال قلبي ، وأدبر في خنقه وأذهب أقمته أن الرجل إذا كان شريفًا لم يحب المرأة الساقطة إذ يعاب بصحبته والاختلاف إليها ، فإذا كان ساقطًا لم تحبه هي ، فانما هو صيدها وفريستها وموضع نغمتها من هذا الجنس ، وأسرف على قلبي في اللامة والتذليل فأقول له : ويحك يا قلبي ! إن المرأة منا إذا تفتح قلبها لطيب تفتح كاللرح يسرف دباؤه لا غير ، فيفتنع القلب ويجمع على أن ينسى وأن يرجع عن طلبه الحب ؛ وأرى المسئلة قد بطلت وكان يطلأها أحسن حل لها ، وأنام وادعة مطمئنة ، فيأتي هو في نومي ويدخل في قلبي ويبيد المسئلة إلى وضعها الأول فما أستيقظ إلا رأيتة هو هو المسئلة . . .

فأنتاهي في الخوف على نفسي من هذا الحب وأراه سجنها وعقابها ، وقهرها وإذلالها ، فأقول لها : ويحك يا نفسي ! إنما همك في الحياة وسائل الفوز والغلب ، فأنت بهذا عدوة مساة في غفلة الرجال صديقة ، وقد وضعت في موضع تمييز فيه باهانات من الرجال يسمونها في نذاتهم بالحب . فأنت عدوة الرجال بمعنى من الدهاء والخبيث ، وعدوة الزوجات بمعنى من

تخبرك عنه قبل أن يخبرك عن نفسه . فلما سمع الدعوى قال لجحا : أنت في الحبس أو تعطيه (اللاشيء) . . .

قال جحا في نفسه : لقد احتجت لعقلي بين هذين الأباهين ؛ ثم انه أدخل يده في جيبه وأخرجها مطبقة ، وقال للرجل : تقدم واتح يدى . فتقدم وفتحها . قال جحا : ماذا فيها ؟ قال الرجل : (لاشيء) .

فقال له جحا : خذ (لا شينك) وامض فقد برئت ذمتي قالوا : فذهب الرجل محتج ، فقال له القاضي : مه ؟ أنت أقررت أنك رأيت في يده (لاشيء) وهو أجرك ؛ فخذ ولا تطمع في أزيد من حقك . . .

وضحكت وضحكنا ، ثم قالت : أنا راضية أن أكون عروس القلم ، فليجبر على القلم نفقتي ، وليصور لي كيف أحبيت ، وكيف أمرت نفسي وجادلها ؟

قلت : لا أتكلم عنك أنت ولا أستطيعه . بيد أنني لو صفت رواية يكون فيها هذا الموقف — لوضعت على لسان الماشقة هذا الكلام تحدث به نفسها

تقول : كيف كنت وكيف صرت . لقد رأيتني أعاشر مائة رجل فأخاطبهم في شتى أحوالهم وأصرتهم في هواي وكلهم يجهد جهده في استمالي ، وكلهم أهل مودة وبذل ، وما منهم إلا جميل مخلص قد أنق وتجمل وراع حسنه كأنما هرب إلى في ثياب عرسه ليلة زفافه وترك من أجلى عروسًا تبكي وتصيح بويلها . ثم أنا مع ذلك مسلفة القلب دونهم جميعًا أصدقهم المودة والسحبة ، وأكذبهم الحب والهوى ؛ فلست أحبهم إلا بما أنال منهم ولست أحبب إليهم إلا ما أنزلهم مني ، وهم بين عقلي وحيلتي رجال لا عقول لهم ، وأنا بين أهوائهم وحمقاتهم امرأة لا ذات لها

ثم أرى بفتة رجلًا فردًا فلا أكاد أنظر إليه وينظر إلى حتى يضع في قلبي مسئلة تحتاج إلى الحل . . .

وأرتاع لذلك فأحاول تناسيه والافضاء عنه ، فتلج المسئلة في طلب حلها وتشغل خاطري وتمتد في قلبي وهو هو المسئلة . . . فلنزع لذلك وأتم له وأجهد جهدي أن أكون مرة حازمة

افتتاح إفريقيا

وكيف غزاها الاستعمار الأوربي

بقلم مؤرخ كبير

ليست المشكلة الإيطالية الحبشية التي تكدر اليوم سلام العالم سوى نغمة جديدة من نغمات الاستعمار القوي ، وطموح أمة أوربية قوية إلى غزواً إفريقيا ضعيفة ترخر أرضها بالثروات الطبيعية الدفينة التي ما فتئت تحفز الاستعمار إلى الغزو والتغلب ، وإلى اجتياح الأمم الضعيفة الآمنة ؛ فهي ليست بذلك مشكلة دولية بالمعنى المعروف ، وإنما هي محاولة أوربية جديدة لاجتياح آخر أرض في إفريقيا استطاعت أن تنجو حتى اليوم من عدوان الاستعمار

كانت القارة الإفريقية منذ قرن فقط ، منطقة بكرًا ، لا يكاد الغرب يعرف شيئًا إلا عن أممها الشمالية التي تحتل الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط ، والتي كانت تتمتع مدى الأحقاب بمحضرات زاهرة ؛ وكانت هذه الأمم المتمدة الزاهرة - مصر وبلاد المغرب - تكاد تحجب ما وراءها من أمم القارة السمراء ، وتكون دون اجتياحها سداً منيعاً يحميها من مطامع الاستعمار القوي الذي استطاع منذ القرن السادس عشر أن يجتاح الأمريكتين ، وأن ينفذ إلى الشرق الأقصى ، واستطاع منذ القرن الثامن عشر أن يستقر في الهند . ومنذ أواخر هذا القرن أيضاً توالى بعوث الاستعمار إلى إفريقيا ، فنفذت إليها من الشرق والغرب والشمال ، وأثارت اكتشافات الرُّحَّل مثل منجو بارك ودينهام وكلابرتون ورنيه كاييه وستانلي ولفنجستون وغيرهم في الأمم الأوربية مطامع وآمالاً جديدة ، وبمشت النهضة الصناعية إليها رغبة قوية في استعمار تلك المناطق الجديدة واستغلال ثرواتها الدفينة ، واستعباد شعوبها المتأخرة وتسخيرها في سبيل الغايات الاستعمارية

وكانت أم إفريقيا الشمالية ، وهي مفتاح القارة ، بالطبع محط الشرعات والمحاولات الأولى ؛ وكانت إسبانيا أسبق الأمم

المحدد والضعيفة ، وعدوة البنايا أيضاً بمعنى من المغالبة والمنافسة ، وكل ما يستطيع الدهاء أن يعمل به هو الذي على أن عمله ، فإذا أسنع وأنا أحب ؟ وكيف أنجح وأنا أحب ؟ ولكن النفس تجيبني على كل هذا بأن هذا كله بعيد عن المسئلة مادام هو هو المسئلة ..

قال الراوي : وكانت كالأهلة مما سمعت ، ثم قالت : ألك شيطانٌ في قلبي ؟ فهذا كله هو الذي حدث في سبعة أيام قال (ح) : ولكن كيف يقع هذا الحب . وهبئك صنفت تلك الرواية ووضعت على لسان العاشقة ذلك الكلام ، فإذا كنت تنطقها في وصف حبها ، وما اجتديها من رجل فاز بقلبي ولم يُداورها ، بمد مائة رجلٍ كلهم دأورها ولم يهز منهم أحد . أنتكون في وجه هذا الرجل أنوار كتبشير الصبح تدلُّ على النهار الكامن فيه ؟

قالت هي : نعم نعم . بماذا كنت تنطقها ؟ قلت : كنت أضع في لسانها هذا الكلام تجيبُ به عاذلةً تمذُّلها :

تقول : لا أدري كيف أحبته ، ولكن هذه الشخصية البارزة منه جذبتني إليه ، وجعلت الهواء نيا بيني وبينه مُغمما بالمغناطيس مصدره هو ، ومعناه هو ، ولا شيء فيه إلا هو عرَّضته لي شخصيته ظاهراً لأن جواب شخصيته في ، وأصبح في عيني كبيراً لأن جواب شخصيتي فيه ، ومن ذلك صارت أفكارى نفسها تزيد كل يوم ظهوراً وتزيدني كل يوم بصراً ، وأعطاه حقه في الكمال عندي حقه في الحب مني ؛ وبذلك الشخصية التي جوابها في نفسي أصبح ضرورة من ضرورات نفسي

قال الراوي : ولما رأيتها في جوى نسيمة وعاصفته ، أردتها على قصتها وشأنها ، فإذا قلت لها وماذا قالت ؟ (في السد القادم بيتها) (طنطا)

إلى الأدبية و . . . من دمشق : أما بعد الشكر للأدبية العاضلة فأنت في الشكرى والموضوع يتذر وسيجيء إليك كتابان الراوي